الفصل الأول

نشأة إمبراطورية الخزر وتطورها

الخزر شعب من أرومة تركية عاش فى القرون الوسطى، ويبدو هذا الشعب للقارئ العادى بعيدًا يطويه غبار الزمن، إلا أن عالم اليوم قد تأثر به تأثرًا عميقًا غير منتظر ولا متوقع. وقد انبرى الأستاذ آرثر كويستلر للكشف عن التاريخ المثير لتلك الإمبراطورية القديمة التى كانت قوة كبيرة فى أوربا الشرقية فى الوقت الذى كان فيه شارلمان إمبراطورًا فى الغرب، وقد نسى الناس الآن أو كادوا الخزر ودولتهم. وكان سلطان هذه الإمبراطورية يمتد من البحر الأسود إلى بحر قزوين، أى من القوقاز إلى الفولجا. وللخزر نصيب فى وقف هجوم المسلمين على بوزنطة التى كانت الذراع الشرقية للكماشة الهائلة التى اكتسحت فى الغرب شمالى إفريقية وعبرت إلى الأندلس.

ووجد الخزر أنفسهم من بعد فى مركز حرج بين قوتين عالميتين عظميين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى بوزنطة وأنصار محمد ﷺ الفاتحين الظافرين. وكان الخزر - كما بين

obeikandi.com

كويستلر فى تشبيه رائع - القوة الثالثة فى أيامهم، واتخذوا لأنفسهم طريقًا غير متوقع فى مقاومة أهل الغرب الذين أرادوا أن يحملوهم على التنصر، وفى الصمود لأهل الشرق الذين كانوا يريدونهم على الإسلام، أجل ثبتوا لهؤلاء وهؤلاء جميعًا ثم اعتنقوا اليهودية.

وهذا هو القسم الأول من الكتاب الطريف الذى كتبه كويستلر وسماه (القبيلة الثالثة عشرة: إمبراطورية الخزر وتراثها).

أما الجزء الثانى فيتناول فيه الكاتب تراث الخزر، وهو يتفكر فى المصير النهائى للخزر وأثرهم فى التركيب السلالى لليهودية الحديثة وتراثها الاجتماعى. ويسوق لنا بحثًا مستفيضًا لا يترك شاردة ولا واردة فى تأييد نظرية يزداد اقتناعنا بها حين نلمس حرصه وتحفظه فى عرضها. وإذا قيض لهذه النظرية أن ترسخ وتثبت فإن القول بمناهضة السامية يصبح خاليًا من المعنى. والكاتب يذهب إلى أن هذا القول يقوم على (سوء فهم اشترك فيه القتلة والمقتولون). وقصة إمبراطورية الخزر كما تتكشف رويدًا رويدًا من ثنايا التاريخ، تبدأ فى الظهور كأنما هى أقسى سخرية اقترفها التاريخ على الإطلاق.

والآن نعود إلى كتاب كويستلر الطريف ونمضى معه فى الحديث عن نشأة هذه الإمبراطورية وسقوطها وتراثها.

نشـأتهـا

حينما كان شارلمان يتوج إمبراطورًا فى الغرب، كـانت تحكـم التخوم الشرقية لأوربا، بين القوقاز والفولجا، دولة يهودية تعرف بإمبراطورية الخزر. وقد لعبت هذه الإمبراطورية فى عزها - من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادى - دورًا بارزًا فى تقرير مصير أوربا فى القرون الوسطى ومن ثم فى العصور الحديثة.

وكانت بلاد الخزر، وهم شعب من أرومة تركية، تشغل مركزًا استراتيجيًا هو المفتاح والمدخل الحيوى بين البحر الأسود وبحر قزوين حيث كانت الدول الشرقية العظمى فى تلك الأيام تواجه بعضها بعضًا، ذلك أن بلاد الخزر كانت حاجزًا يدرأ عن بوزنطة شر غزوات القبائل البربرية النهمة فى الفيافى الشمالية، قبائل البلغار والمجر والبشناق وغيرهم، ثم شر غارات قرصان الشمال والروس، وأهم من ذلك أن الخزر هم الذين أوقفوا الهجوم العربى الإسلامى العاصف فى مراحله الأولى الجائحة على أوربا الشرقية.

ولعلنا لا نعجب، والأمر كما بينا، من أنه حدث بعد انتصار الخزر على العرب أن تزوج الإمبراطور المقبل قسطنطين سنة ٧٣٢م

obeikandl.com

أميرة خزرية، وأصبح ابنهما بمرور الوقت الإمبراطور ليو الرابع الذى عرف بليو الخزرى.

على أن العرب انتصروا بعد ذلك على الخزر سنة ٧٣٧م. وما أن حل هذا الوقت حتى كان الحافز للمسلمين على الجهاد قد تراخى، وهزت الفتن دعائم الخلافة وارتد العرب عبر القوقاز من غير أن يثبتوا أقدامهم فى الشمال، على حين اشتد باس الخزر وازدادت قوتهم عما كانت عليه.

وبعد ذلك بسنوات قلائل، أى فى سنة ٧٤٠م على ما يرجح، اعتنق الملك وحاشيته والطبقة العسكرية الحاكمة اليهودية، وأصبحت هذه العقيدة هى دين دولة الخزر. ولا شك أن هذا الأمر قد حير معاصرى الخزر كما حير العلماء والدارسين المحدثين الذين وجدوا الشواهد على ذلك فى المصادر العربية والبوزنطية والروسية والعبرية.

والحق أن هذا التحول من الخزر إلى اليهودية، كما يقول مؤرخ مجرى شيوعى، أمر يثير طائفة من التخمينات الطريفة، وخاصة إذا صدر هذا من شعب ليس من أرومة يهودية. لكن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هى أن الخزر اعتنقوا رسميًا اليهودية متحدين ضغوط المسيحيين فى بوزنطة، وضغوط المسلمين من الشرق، واتخذوا دينًا لا سند له من أية سلطة سياسية، بل كان موضع اضطهاد من

الجميع تقريبًا. كان هذا التحول منهم مثيرًا لدهشة جميع المؤرخين المعنيين بالخزر، ولا يمكن أن يعد ذلك أمرًا عارضًا وإنما يجب أن نعده دليلا على سياسة مستقلة اتبعتها مملكة الخزر.

صحيح أن المصادر تختلف في تفصيلات هذا الأمر ولكن حقائقه الكبرى فوق الشك.

والمسألة التي يدور حولها الخلاف هي مصير الخزر اليهود بعد تدمير إمبراطوريتهم في القرن الثاني عشر الميلادي أو القرن الثالث عشر، على أننا نصادف في أواخر القرون الوسطى مستوطنات الخزر في القرم وأوكرانيا وهنغاريا وبولندة ولتوانيا، ونخرج من ذلك بأنه حدثت هجرة للقبائل والجماعات الخزرية إلى أقطار من أوربا الشرقية، وخاصة روسيا وبولندة، حيث نجد في مطالع العصر الحديث أعظم تجمعات لليهود. وقد حمل هذا طائفة من المؤرخين على الذهاب إلى أن فريقًا لا يستهان به من اليهود الشرقيين، وربما كان معظمهم (ومن ثم يهود العالم) هم من الخزر وليسوا من أصل سامي.

وهذه النظرية بعيدة المدى فيما تتضمنه من أمور قد تفسر الحذر الشديد الذي يلتزمه المؤرخون في تناولهم هذه المسألة، فقد وردت في دائرة المعارف اليهودية فقرة خاصة كتبها المحررون عن (اليهود والخزر بعد سقوط المملكة) وكان غرضهم الواضح من هذه الفقرة تحاشي إزعاج المؤمنين بعقيدة الشعب المختار.

(للقرائين المتحدثين بالتركية فى القرم وبولندا وغير ذلك من البلاد علاقة وثيقة بالخزر، ولربما أيدت ذلك الشواهد المستقاة من الأدب الشعبى وعلم الإنسان وكذلك الشواهد المستقاة من اللغة، والظاهر أن ثمة شواهد وافرة تدل على الوجود المستمر فى أوربا لسلالة الخزر).

ولكن ما مبلغ الأهمية، من الناحية العددية، لوجود أبناء يافث القوقازيين فى مضارب سام؟ الحق أن من أهم الداعين إلى النظرية القائلة بأن الخزر هم أصل الشعب اليهودى هو بولياك أستاذ تاريخ اليهود فى القرون الوسطى بجامعة تل أبيب. فقد جاء فى كتابه عن بلاد الخزر الذى كتبه بالعبرية ونشره فى تل أبيب سنة ١٩٤٤ ثم أعيد نشره سنة ١٩٥١ قوله إن الوقائع تتطلب: (تناول الموضوع من زوايا جديدة من حيث مسألة العلاقات بين شعب اليهود الخزرى والجماعات اليهودية الأخرى. ومن حيث مسألة: إلى أى حد تذهب إلى اعتبار هذا الشعب اليهودى الخزرى نواة المستوطن اليهودى الكبير فى أوربا الشرقية.. والنازلون بهذا المستوطن سواء استقروا حيث كانوا، أم هاجروا إلى الولايات المتحدة أم إلى غيرها من البلاد، فإنهم الآن هم الأغلبية الكبرى للشعب اليهودى فى العالم).

وقد كتب هذا قبل أن يعرف مدى المذبحة الكبرى التى نزلت باليهود، ولكن ذلك لا يغير من الواقع الذى يفيد أن الأغلبية الكبرى من اليهود الذين بقوا من هذه المذبحة فى هذا العالم من الأوربيين

الشرقيين، ومن ثم فلعلهم في معظم الحال من أصل خزرى. وإذا كان الأمر كذلك فإن معناه أن أجدادهم لم يقدموا من الأردن بل من الفولجا ولم يجيئوا من كنعان، بل من القوقاز الذى قيل فى يوم من الأيام إنه مهد الجنس الآرى. وأنهم من حيث الأرومة أقرب رحمًا لقبائل الهون والأويغور والمجر منهم لذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب. وإذا تحقق هذا فإن القول بالعداء للسامية يصبح خاليًا من المعنى.

لقد كان مصير الخزر يشبه مصير اتيلا، على أن الهون ظلوا على المسرح الأوربى ثمانين سنة فقط، أما مملكة الخزر فقد تماسكت الشطر الأكبر من قرون أربعة. وكانوا أيضًا مثل الهون يعيشون فى خيام على الأغلب، كما كانوا على وشك أن يتحولوا من قبيلة من البدو والمحاربين إلى أمة من الزراع ورعاة الأغنام وصيادى السمك، وزراع الكروم، والتجار وأرباب الحرف المهرة. وقد اكتشف علماء الآثار الروس شواهد تدل على ذلك كما اكتشفوا أن مملكة الخزر كانت فى عصرها المتأخر تحيطها سلسلة من الحصون المحكمة، وأن من الشعوب التى كانت خاضعة لسلطانها البلغار والبرطاس والغز والمجر، وكذلك المستوطنات القوطية والإغريقية فى القرم والقبائل الصقلبية فى الغابات الشمالية الغربية.

ونحن إذا نظرنا نظرة سريعة إلى تاريخ الإمبراطوريات البدوية العظيمة فى الشرق فسنجد أن مملكة الخزر كانت تشغل مركزًا

وسطًا فى الزمن والحجم ودرجة الحضارة بين الإمبراطوريتين اللتين سبقتاها. وهما إمبراطورية الهون، وإمبراطورية الآوار، وبين إمبراطورية المغول التى خلفتها.

لكن من يكون هؤلاء القوم الذين يستلفتون النظر بقوتهم وباسهم وما حققوه، كما يستلفتون النظر بدخولهم فى دين المشردين؟ الواقع أن الأوصاف التى انتهت إلينا عن الخزر ترجع إلى مصادر معادية لهم ولا يمكن أن ناخذها بظاهر ما فيها. فيقول الإخبارى العربى أبو سعيد المغربى: إنهم يقيمون إلى الشمال من المعمور من الأرض تجاه الإقليم السابع وأرضهم باردة رطبة، ومن ثم فإن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرق وشعرهم مسترسل يضرب إلى الحمرة على الأغلب وأجسامهم كبيرة وطبائعهم باردة ومنظرهم عامة كالهمج. وكذلك لم ينظر إليهم بعين العطف والرضا الكتاب الكرج (الجورجيون) الذين كانت بلادهم أقدم من الخزر ثقافة وأعرق، كما قاسوا الأمرين من غارات فرسان الخزر واجتياحهم لبلادهم، فقد شبههم كاتب كرجى بياجوج وماجوج. وأشار كاتب أرمنىٌ إلى (حشود الخزر المخيفة بوجوههم الوقحة العريضة الجرداء، وشعورهم المسترسلة كالنساء) ثم يجىء الإصطخرى آخر الأمر فيقول، وهو المصدر الذى يعد من المصادر العربية الكبرى (الخزر لا يشبهون الأتراك وهم سود الشعور، وهم صنفان: صنف يسمى (قراخزر) وهم سمر يضربون بشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الجمال والحسن).

والذى نستطيع أن نقوله آمنين أن الخزر كانوا قبيلة (تركية) خرجت من الفيافى الآسيوية، ولعل ذلك حدث فى القرن الخامس الميلادى، وفى اشتقاق كلمة خزر أقوال شتى لا داعى للخوض فيها هنا.

***

وانهارت إمبراطورية الهون بعد وفاة أتيلا فتركت فراغًا فى أوربا الشرقية، وتدفقت مرة أخرى موجات متلاحقة من الحشود البدوية، عابرة تلك البلاد قادمة من الشرق إلى الغرب، ومن أبرز هذه الحشود الأوريغور والأوار، والظاهر أن الخزر كانوا فى أغلب هذه الحقبة ينعمون بالإغارة على إقليمى الكرج وأرمينية الغنيين فيما وراء القوقاز، ويقتسمون الغنائم النفيسة. وقد اصبحوا فى أثناء النصف الثانى من القرن السادس القوة المسيطرة على القبائل النازلة شمالى القوقاز، ذلك أن الخزر قد أخضعوا كثيرًا منها أو استوعبوها استيعابًا ولم يقاومهم مقاومة عنيدة إلا البلغار.

على أن الخزر قبل أن يصبحوا دولة ذات سيادة اضطروا إلى الاعتراف بالولاء لدولة قصيرة العمر هى التى عرفت باسم الإمبراطورية التركية الغربية، وكانت هذه الإمبراطورية حلفًا من القبائل يتولى أمره حاكم هو الخاقان، وهو لقب اتخذه حكام الخزر من بعد.

وهكذا نجد أن الشرق الأوسط في العصور القليلة الأخيرة من القرن السابع الميلادي وقبيل أن تخرج من جزيرة العرب تلك الموجة العارمة من الفتح، قد سيطرت عليه ثلاث قوى: بوزنطة، وفارس، والإمبراطورية التركية الغربية، وقد اقتتلت القوتان الأوليان قتالا دائبًا قرنا من الزمان، حتى بدا أنهما على وشك الانهيار، وانتعشت بوزنطة بعض الانتعاش، إلا أن مملكة فارس لم تلبث أن لقيت مصيرها، واشترك الخزر فعلا في تحديد هذا المصير.

لقد كان الخزر تحت سيادة مملكة الأتراك الغربيين اسمًا، وكانوا هم القوة الفعالة في هذا المملكة، ثم لم يلبثوا أن خلفوها حتى إن الإمبراطور الروماني هرقل قد عقد معهم سنة ٦٢٧م حلفا عسكريا ثم تعاقبت تلك الأحلاف بينهم وبينه، وتجهز الاثنان لشن الحملة الفاصلة على بلاد فارس. وكان الإمبراطور حريصًا على هذه العلاقة حتى إنه وعد الأمير الخزري بتزويجه ابنته يودوكيا من زوجته الأولى.

ولم تفق الدولة الفارسية قط من الهزيمة القاصمة التي أنزلها بها الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٧. وحوالي هذا الوقت تفككت عرى الحلف - بين القبائل - الذي قامت عليه الدولة التركية الغربية، وحل محل القوى الثلاث القديمة قوى ثلاث أخرى هي الخلافة الإسلامية وبوزنطة المسيحية ومملكة الخزر التي ظهرت حديثا في الشمال،

وقد قدر لهذه المملكة ان تتحمل سورة الهجوم العربى فى مراحله الأولى وتحمى سهول أوربا الشرقية من هؤلاء الفاتحين.

وفى السنوات العشرين الأولى من هجرة النبى ﷺ إلى المدينة سنة ٦٢٢م كان المسلمون قد فتحوا بلاد فارس والشام والجزيرة ومصر واحاطوا قلب دولة بوزنطة (وهو الآن تركيا) بشبه دائرة رهيبة امتدت من البحر المتوسط إلى القوقاز والشواطئ الجنوبية لبحر قزوين. وقد كان القوقاز عقبة طبيعية جسيمة ولكنه لم يكن أمنع من جبال البرانس، ويمكن النفوذ إليه من ممر دربند على طول ساحل بحر قزوين.

وما أكثر ما كان الخزر يمرون من هذا المنفذ الذى كان يسمى باب الأبواب ويغيرون هم والقبائل النهّابة منذ عهد سحيق على البلاد التى فى الجنوب ثم يرتدون إلى منازلهم. وقد اخذ العرب فى سطوتهم يستخدمون هذا الممر ويوغلون فى بلاد الخزر إلا انهم لم يستطيعوا أن يمكنوا لأنفسهم فيها، إذ كان معظم جهدهم فى تلك الأيام منصرفًا إلى حصار القسطنطينية. وفى هذه الاثناء أخضع الخزر البلغار والجر وأتموا فتوحهم حتى بلغوا اوكرانيا والقرم، ولم يكن صنيعهم هذا مجرد غارات موقوتة تبغى الغنائم بل كان فتحًا منظمًا يضم الأراضى المفتوحة إلى ملك الخاقان قوى الباس ملك الخزر، وقد بلغ من سطوة مملكة الخزر وتوحدها انها بدأت فى أوائل القرن الثامن الميلادى تتخذ خطة الهجوم على العرب،

فكان الخزر يهاجمون خلال الحرب ثم يكر عليهم العرب ويتبادلون الكر والفر ما بين سنتى ٧٢٢ و ٧٢٧م. وكان الخزر يستبسلون فى القتال استبسالا حتى إن مدينة خزرية آثرت أن تحرق على آخرها دون أن تستسلم.

وفى أثناء هذه السنوات اجتاح الخزر بلاد الكرج وارمينية وهزموا العرب سنة ٧٣١م. ولكن العرب كرّوا عليهم واستطاع القائد العربى المشهور مسلمة بن عبد الملك أن يستولى على بلنجر وسمندر كلتيهما. ولكن الغزاة العرب لم يستطيعوا فى هذه المرة أيضًا أن يثبتوا أقدامهم فى هذه البلاد، وتنفست الإمبراطورية الرومانية الصعداء واعترفت بفضل الخزر فتزوج ولى عهد هذه الإمبراطورية أميرة خزرية قُدّر لابنها منه أن يحكم بوزنطة باسم ليو الخزرى.

وتوالت التقلبات على العرب والخزر وتراخت قبضة الكماشة الهائلة التى مدّها العرب من خلال جبال البرانس فى الغرب ومن خلال القوقاز فى أوربا الشرقية من طرفيها فى ذلك الوقت.

* * *

وتورط الخزر فى فترة السكون التى قامت بين الحروب العربية الأولى والحروب العربية الثانية فى وقائع التاريخ البوزنطى الكئيبة. إذ حدث أن أصبح يوستنيانوس الثانى إمبراطورًا على الدولة الرومانية الشرقية وهو فى سن السادسة عشرة. وكان هذا

الإمبراطور ضعيفًا متقلب الأهـواء تتحكـم فيـه كبريـاء كاذبـة ويتجاذبه صفيان من اصفيائه: خصـى وراهـب. وضاق الشعب بعد عشر سنين بسوءاته فثاروا عليه وأمر الإمبراطور الجديد بقطع أنفـه ولسانه إلا أن ذلك لم يتم على الوجه الأكمل، ثم نفـاه إلى خيرسون فى أرض تتر القـرم وراح يوستنيانوس يتـآمر بمـا يحقق عودتـه إلى العرش وفرّ إلى بلده دوروس فـى القـرم، وكـانت هـذه البلـدة تحت حكم الخزر، ولقى خاقانهم. وانتهز الخاقان هذه الفرصة ليدس أنفه فـى العـراك الدائـر على عـرش الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقيـة. واستفحل أمر الخزر بعد عـدة حـوادث وأصبـح لهـم أثـر كبير على أقدار هذه الإمبراطورية فضلا عن دفاعهم المستبسل عن القوقاز فـى رد هجمات المسلمين.

* * *

وإذا راعينـا التسلسـل التـاريخى فـإن الحـادث التـالى الـذى يجـب أن نتناولـه هـو اعتنـاق الخـزر لليهوديـة حـوالى عـام ٧٤٠، ولكـن هـذا الحـادث المشـهور لا يمكـن أن نـراه فـى وضعـه الصحيـح إلا إذا ألممنـا بخلائق الخزر وعاداتهم وشئون حياتهم اليوميـة قبـل دخولهـم فـى اليهودية.

ومن المؤسف انه ليست بـين أيدينـا تقـارير شـهود العيـان النابضـة بالحيـاة مثلمـا نجـده فـى وصـف بـلاط أتيـلا، إذ إن كـل روايـات

الإخباريين البوزنطيين والعرب منقولة عن غيرهم وهى فى الغالب أشتات متفرقة تسير على نهج ثابت، ونستثنى من ذلك: رسالة من ملك من ملوك الخزر، ومناقشتها فى الفصل الخاص باعتناق الخزر لليهودية، ووصف رحلة قام بها الرحالة العربى دقيق الملاحظة ابن فضلان الذى كان عضوًا فى سفارة من بلاط متحضر إلى همج الشمال. ونعنى بهذا البلاط بلاط الخليفة المقتدر. وقد خرجت السفارة من بغداد مارة ببلاد فارس وبخارى إلى بلاد بلغار الفولجا. وكانت الحجة الرسمية التى دعت إلى هذه الرحلة الكبيرة خطاب دعوة موجهًا من ملك البلغار يسأل فيه الخليفة أن يبعث إليه بهداة يعلمون شعبه الإسلام، وأن يساعده على إقامة قلعة تعينه على أن يتحدى مولاه الأكبر ملك الخزر.

وقد كتب ابن فضلان رسالة مشهورة وصف فيها هذه البلاد وصفًا حيًا، فقال: إن الرحلة كانت بطيئة لا أحداث فيها، حتى بلغ أفراد السفارة خوارزم، وهى من ثغور الخلافة جنوبى بحر آرال، وكيف حاول حاكم هذه الولاية أن يمنعهم من المضى فى رحلتهم محتجًا بأن بين بلاده وبين مملكة البلغار ألفًا من قبائل الكفار سوف تقتلهم. وأخيرًا استسلم الحاكم لرغبتهم وشخصت الرحلة من كركانج على مصب نهر جيحون ولبث المسافرون فيها ثلاثة أشهر لتجمُّد المياه ونزول الثلج، وقد أوى القوم إلى مساكنهم وخلت الطرقات من الناس، وكانت هذه المساكن خيامًا تركية

من اللباد، ثم لحقت البعثة بعد أشهر بقافلة ضخمة تعبر الفيافى الشمالية فاشتروا مئونتهم. ولم يرض ابن فضلان عن جو خوارزم ولا عن ناسها ومضى يصف الرحلة وما مر بها من حوادث ولم يقدر استقلال القوم فى الراى ولم يرض رسول بلاط بغداد الزاهر عن احتقار قبائل البدو للسلطة. ومرت البعثة بعد ذلك بأرض الغز الأتراك. وعجب ابن فضلان من الوسائل الديمقراطية التى كان ينتهجها الغز الأتراك الذين كانوا يؤدون الجزية للخزر وكانوا قريبى الشبه بهم. وعجب ابن فضلان من هذه الوسائل الديمقراطية التى كان ينتهجها الغز حين يتخذون أى قرار. وانتقد اخلاقهم الجنسية وإباحيتهم وهمجيتهم وقص نوادر عن ذلك، كما ذكرنا أن الأتراك كانوا يعدون اللواط جريمة فظيعة.

ولم يطق رحالتنا الذى تعود على حمامات بغداد الفاخرة قذارة الأتراك، ولاحظ أنهم لا يغتسلون بعد الغائط ولا التبول ويحتفظون بملابسهم الداخلية حتى تبلى وتتهتك من القذارة، بل إن بعض قبائلهم يحلقون لحاهم ويأكلون ما فيها وما فى ملابسهم من قمل ويقولون: إن طعمه لذيذ!

ونخرج من هذا بأن الصورة التى رسمها ابن فضلان ليست جذابة ولا مرضية، وإنما كان الباعث عليها هو اشمئزازه من قذارة الأتراك وخروجهم على دواعى الحشمة بتعرية أجسامهم، والهمجية التى تقترن بعقوباتهم وقرابينهم.

ولم يتحدث عن الأديان الوثنية إلا القليل، وما أثار اهتمامه عبادة الباشقر (البشجرد) للعضو التناسلي للذكر مؤمنين بأنهم منه قد جاءوا.

وكذلك يصف ابن فضلان في ترفع التضحية في مواسم الجنازة بمئات من الخيل وقطعان الماشية والقتل الفظيع لجارية من الروس في جنازة مولاها.

والعجيب في أمرهم أنهم يقتلون كل نابغ فيهم، فهم يؤثرون العادي من الناس ويخافون أن يقودهم النابغ أو العبقري إلى الهلاك. وثمة مثل تترى، يقول: إذا زادت معرفتك عن الحد شنقوك، وإذا زاد تواضعك عن المطلوب داسوك بالأقدام.

ويضيف ابن فضلان عن قتل النابغين: إنهم يقدمون قربانا لله. والراجح أن هذه الشعيرة لا يقوم بها البلغار من عامة الناس وإنما يقوم بها الأطباء، فهم موكلون بالحياة والموت. ويقول ابن رسته: إن أطباء الروس يستطيعون أن يضعوا الحبل حول عنق أي إنسان ويشنقوه على شجرة استدرارًا لرحمة الله.

وسوف نرى أن التضحية بالبشر كان يمارسها الخزر أيضًا، ويدخل في ذلك شعيرة قتل الملك في نهاية حكمه.

ومن المؤسف أن ابن فضلان قد حيل بينه وبين زيارة قصبة الخزر ولم يجد بدًا من الاعتماد في معلوماته على البيانات التي

openikandil.com

استقاها من البلاد التى كان يحكمها الخزر وخاصة من بلاط البلغار.

* * *

وقد استغرقت البعثة التى أوفدها الخليفة سنة لبلوغ هدفها فى أرض بلغار الفولجا، وكان الطريق المباشر من بغداد إلى الفولجا يمر بجبال القوقاز وبلاد الخزر، وأرادت البعثة أن تتحاشى المرور بأرض الخزر فقامت بدورة كبيرة جدًا حول الشاطئ الشرقى لبحر قزوين.

ولقيت البعثة الأخرى فى أثناء إقامتها فى أرض الغز المتاعب، ذلك أن الغز كانوا على علاقة سيئة بالخزر، وظلوا مترددين سبعة أيام كاملة فى السماح للبعثة بالمضى فى رحلتها، وراح رئيس جيشهم يقلب الأمر على وجوهه المختلفة مع زعمائهم، ولعل ابن فضلان استطاع إقناع القوم آخر الأمر بالسماح لهم بإكمال سفرتهم، ويذكر ابن فضلان على التخصيص الجزية السنوية التى كان يؤديها ملك البلغار للخزر.

ثم يروى ابن فضلان حوادث وأوصافًا طريفة عن الخزر، ولكنه لا يعتمد فى روايته على رؤية شاهدها بنفسه وإنما ينقل ما علمه عنهم من البلاط البلغارى، فجاءت روايته مشوبة بالهوى لأن ملك البلغار كان يكره أهل الخزر، فضلًا عن كراهية الخلافة الإسلامية لمملكة تدين بغير دينها.

وينتقل ابن فضلان فجاة من وصفه بلاط الروس إلى وصف البلاط الخزرى فيقول: (وأما ملك الخزر فاسمه خاقان، لأنه لا يظهر إلا فى كل أربعة أشهر متنزهًا، ويقال له خاقان الكبير ويقال لخليفته (خاقان به) وهو الذى يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر الإخبات والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافيًا وبيده حطب، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه، وبخلفه رجل يقال له كندر خاقان، وبخلف هذا أيضًا رجل يقال له جاويشغر، ورسم الملك الأكبر ألا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير ما ذكرنا، والولاية فى الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به، ورسم الملك الأكبر إذا مات أن تبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتًا، ويحفر له فى كل بيت منها قبر، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه، وتطرح النورة فوق ذلك، وتحت الدار نهر، والنهر كبير يجرى فوقه، ويجعلون ذلك القبر بينهما، ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود، وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت ويسمى قبره الجنة، ويقولون: قد دخل الجنة، وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب، ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه باخذها طوعًا أو كرهًا، وله من

الجوارى السرارى لفراشه ستون فى غاية الرقة والجمال. وكل واحدة من الحرائر والسرارى فى قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج، وحول كل قبة مضرب، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها، فإذا أراد.. بعضهن بعث إلى الخادم الذى يحجبها فيوافى بها فى أسرع من لمح البصر حتى يجعلها فى فراشه، ويقف الخادم على باب قبة الملكة (فإذا انتهى منها) أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة.

ويمضى ابن فضلان فى ذكر بعض الملاحظات الغامضة عن عادات خاقان الخزر ثم يسوق آخر الأمر بعض المعلومات الواقعية عن البلاد فيقول:

(وللك الخزر مدينة عظيمة على نهر إتل، وهى جانبان فى أحد الجانبين المسلمون، وفى الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك وهو مسلم، واحكام المسلمين المقيمين فى بلد الخزر والمختلفين إليهم فى التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر فى امورهم ولا يقضى بينهم غيره) ويختتم ابن فضلان رسالته فيقول: (والخزر وملكهم كلهم يهود، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم فى طاعته ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة، وقد ذهب بعضهم إلى ان ياجوج وماجوج هم الخزر).

وقد فضلنا الكلام عن أقوال ابن فضلان برغم قلة المعلومات التى يذكرها عن الخزر، لأنها تلقى ضوءًا على العالم الذى كان يكتنفهم، والهمجية التى كان عليها القوم الذين كانوا هم يعيشون بينهم، وتكشف عن ماضى الخزر قبل تهودهم، ذلك أن البلغار والخزر كانوا قبيل زيارة ابن فضلان على درجة عالية من التحضر إذا قورنوا بجيرانهم.

ويذكر كتاب العرب الآخرون معلومات شتى عن الخزر فيقولون إنه كان للمسلمين منهم عدة مساجد، وكانت مئذنة مسجد منها تعلو فوق قلعة الملك.

وكانت لهم أراضٍ ممتدة خصيبة، ومناطق مزروعة وحقول وكروم تغطى مساحات واسعة. ويروى ابن حوقل أنه كان ببلاد الخزر مدينة اسمها أسمد (سمندر) فيها بساتين وافرة وحدائق وزروع ملحقة بها. ويقال: إن عددها كان يبلغ الأربعين ألفًا، وكانت طائفة كبيرة منها تنتج الأعناب.

وكان المورد الأكبر لملكهم من التجارة الخارجية، تفد إلى المملكة القوافل التى تعد بألوف الرجال وألوف الأحمال، مسوقة بالمنسوجات والفاكهة المجففة والشمع والتوابل والفراء الفاخر والعبيد والجوارى، وعلى الجملة نقول: إن مملكة الخزر كانت زاهرة تعتمد إلى حد كبير على قوتها العسكرية.

ويقول المؤرخ العربى الإصطخرى: إن قوام صادرات الخزر المحلية هو غراء السمك، والظاهر ان فى هذا مبالغة، ذلك أن معظم نشاطهم التجارى كان يعتمد على إعادة تصدير السلع التى كانت ترد إليهم من الخارج.

أما المقدسى فيقول: إن بلاد الخزر يكثر فيها الأغنام والشهد واليهود!، ويذكر كتاب (دربندنامه): إن بها أيضًا مناجم الذهب والفضة، وكانت بضائع الخزر تشاهد فى بغداد كما كان تجارهم يوجدون فى القسطنطينية والإسكندرية بل فى سامراء وفرغانة. وهكذا نرى أن بلاد الخزر لم تكن معزولة عن العالم المتحضر، وأنها بالقياس إلى جيرانها كانت بلادًا يؤمها الناس من كل جنس كما كانت مكشوفة تتأثر بشتى المؤثرات الثقافية والدينية. ونخلص من ذلك بأنها كانت بوصفها هذا مهيأة لأن تتخذ اليهودية دينًا رسميًا لها.

والظاهر أن الفنون والحرف كانت زاهرة فيها. ومن بينها فن التفصيل الراقى، وشاهد ذلك أن الإمبراطور قسطنطين الذى تسنم العرش من بعد وقد تزوج خزرية هى ابنة الخاقان، وحملت العروس صداقًا له هو رداء فاخر بلغ من إعجاب البلاط البوزنطى به أن اتخذوه حلة يرتديها الرجال فى المحافل الرسمية. ولما تزوجت أميرة خزرية أخرى بوالى أرمينية المسلم حمل موكبها من الفرسان عدا

الحشم والخدم عشر خيام محمولة على عجل مصنوعة من أفخر أنواع الحرير ولها أبواب من صفائح الذهب والفضة، وفرشت أرضها بالفراء، وكان عشرون آخرون من الخيالة يحملون أوانى من ذهب وفضة وغير ذلك من كنوز صداقها. وكان الخاقان نفسه يسافر فى خيمة متحركة أفخم من ذلك تجهيزا تعلوها رمانة من الذهب.

والفن الخزرى كفن البلغار والمجر يعتمد فى معظمه على التقليد، ويسير على منوال النماذج الفارسية الساسانية. ويؤكد العالم الأثرى السوفيتى «بادر» أن الخزر هم الذين نشروا الأوانى الفضية الفارسية فى الشمال. والخزر فى هذا الصدد إما وسطاء غيرهم، وإما مقلدون تخرج هذه السلع من مصانعهم.

وهكذا يتبين لنا أن الخزر كانوا هم أهم الوسطاء فى نشر الفن الفارسى والفن البوزنطى بين القبائل شبه الهمجية فى أوربا الشرقية.

وثمة مدرسة من علماء الآثار الهنغاريين تقول: إن مشغولات القرن العاشر من الذهب والفضة فى المجر كانت من صنع الخزر.

وهناك شواهد كثيرة فى المجر تدل على تأثرها العميق بالخزر. ويذكر المسعودى أن عدة جيش الخزر. سبعة آلاف جندى يخرجون على ظهور جيادهم فى ركاب الملك، وفيهم نبالة

مجهزون بدروع تغطى صدورهم وعلى رءوسهم خوذات، وغير ذلك من السلاح، ولم يكن ملك من ملوك هذا الجانب من العالم جيش قائم إلا ملك الخزر. ويقول ابن حوقل: إنه كان فى خدمة هذا الملك اثنا عشر ألف جندى إذا مات أحدهم أقيم غيره مكانه فورا.

وكان هذا الجيش نواة تتضخم أحيانا وقت الحروب فتصبح عدتها مائة ألف جندى أو أكثر.

* * *

والراجح أن قصبة هذه الإمبراطورية المختلطة كانت فى أول الأمر بلنجر فى السفوح الشمالية لجبال القوقاز، ثم نقلت بعد غارات العرب فى القرن الثامن الميلادى إلى سمندر على الشاطئ الغربى للقوقاز، ثم إلى إتل على مصب نهر الفولجا.

وقد وصفها ابن فضلان فقال: (وإتل مدينة، والخزر اسم المملكة لا اسم مدينة، والإتل قطعتان، قطعة على غربى هذا النهر المسمى إتل، وهى أكبرهما، وقطعة على شرقيه، الغربية مقدارها فى الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور، ولها أسواق وحمامات وفيها خلق كثير من المسلمين يقال: إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، ولهم نحو ثلاثين مسجدا، وقصر الملك بعيد من شط النهر، وقصره من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره. ولهذا السور أربعة أبواب أحدها يلى النهر وآخرها يلى الصحراء على ظهر هذه المدينة، وملكهم

يهودى) وقد تعجب كثير من كتاب العرب من وفرة المساجد فى الحى الإسلامى من هذه القصبة وارتفاع المئذنة الرئيسية، ودأبوا على التنويه باستقلال المحاكم الإسلامية والفقهاء. وقد قال المؤرخ المسعودى هيرودوت العرب فى ذلك: (ورسم دار محكمة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة اثنان منهم للمسلمين واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصارى يحكمان بحكم الإنجيل، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بحكم الجاهلية وهى قضايا عقلية، فإذا أورد ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فاحتكموا إليهم وانقادوا لما توجبه شريعة الإسلام).

***

وفى هذه السطور التى كتبها عمدة المؤرخين العرب فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ما يغرينا بأن ننظر نظرة حسنة جدًا للحياة فى مملكة الخزر، ومن ثم فنحن نقرأ فى مادة خزر من دائرة المعارف اليهودية عبارة تقول (فى الوقت الذى ران فيه التعصب والجهل والفوضى على أوربا الغربية كان يحق لمملكة الخزر أن تفاخر بحكومتها العادلة واسعة الأفق).

وهذا صحيح من ناحية أن الخزر لم يعرف عنهم الاضطهاد الدينى قبل اعتناقهم اليهودية وبعدها، وقد كانوا أكثر تسامحًا وتنورا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية. أما من الناحية الأخرى

فإنهم احتفظوا بعادات همجية تخلفت عندهم من ماضيهم القبلى. ذلك أننا نجد فى رسالة ابن فضلان أنهم كانوا يقتلون ملوكهم: (ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يومًا واحدًا قتلته رعيته وخاصته وقالوا هذا قد نقص عقله واضطرب رايه) واختلف المؤرخون فى ذكر هذا القتل، وأغلبهم على القول بانهم كانوا يضعون شريطًا من الحرير حول عنقه ويشدونه حتى يوشك الملك أن يختنق ثم يسألونه عن المدة التى ينوى أن يحكمهم فيها فيتلجلج فيخنقوه وقد تشكك المؤرخ المشهور بيورى فى هذه الأقوال، ولا ندرى هل اختفت هذه العادة بعد تهودهم أو لا.

***

وننتقل بعد هذا إلى وجود عاهلين يتقاسمان الحكم فى المملكة، فنجد ان لذلك نظائر فى إسبرطة الإغريقية وعند اليابان فى القرون الوسطى حتى سنة ١٨٦٧. ويبدو أن وجود العاهلين يدل على ان الخزر كانت لهم عقلية تفرق بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية.

ومع كل ذلك فإن ما ذكر فى هذا الصدد لا يوضح التفريق العجيب بين ما هو مقدس وما هو علمانى.

وثمة إجابة عن هذه المسألة تقوم على التدبر وإمعان الفكر قال بها الأستاذ ارتامونوف، فهو يذهب إلى أن اتخاذ الخزر اليهودية دينًا للدولة جاء نتيجة انقلاب فى الحكم نزل بالخاقان، سليل الأسرة

الوثنية التى لا يمكن الوثوق بولائه للشريعة الموسوية، إلا من حيث هو رمز فحسب. وهذه نظرية جيدة كغيرها من النظريات، ولكن ليس لها إلا سند قليل يدعمها ومع ذلك فإن من الراجح فيما يبدو اتخاذ اليهودية دينا وقيام عاهلين يحكمان المملكة يربط بينهما رابط ما.

وإلى الفصل التالى نتحدث فيه عن تلك القضية الهامة ألا وهى اعتناق مملكة الخزر لليهودية.

obeikandl.com